الرحالة الغربيون ورواياتهم عن الأحساء في النصف الأول من القرن العشرين الميلادي / الرابع عشر الهجري

د. عبدالله بن محمد المطوع
قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة الملك سعود

عُرفت الأحساء عبر التاريخ بعدد من الأسماء مثل البحرين وهجر والخط، أما في تاريخنا المعاصر، فكما قال صاحب التحفة: "الأحساء والحساء اسم يطلق على المقاطعة الشرقية" من المملكة العربية السعودية، ونحا الجاسر نحوه، فقال: "اسم كان إلى عهدنا يطلق على ما يعرف الآن باسم المنطقة الشرقية "[1]. وتعد الأحساء بسواحلها وموانئها ومدنها امتدادًا طبيعيًا لمنطقة نجد، وخاصةً لمنطقة العارض، وذلك من الناحيتين الجغرافية والاجتماعية[2]. كما يبرز هذا التكامل بشكل أكبر في المجال الاقتصادي، حيث يمكن النظر إلى الأحساء على أنها عتبة الديار النجدية؛ فعن طريقها يصدّرون بضائعهم، ويستوردون ما يلزمهم من الخارج، كما أنها المعبر الأقرب الذي يرتحل

---

(١) حول هذا الموضوع انظر: محمد بن عبدالله بن عبدالقادر الأحسائي، تحفة المستفيد بتاريخ الأحساء في القديم والجديد، الرياض: مطابع الرياض، الطبعة الأولى ١٣٧٩هـ، ص ص هـ ٣-٤، وحمد الجاسر، المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية، المنطقة الشرقية، القسم الأول، الرياض: دار اليمامة، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ، ص ص ٣١، ١٢٠.

(٢) هاجرت كثير من الأسر الأحسائية من نجد عبر حقب زمنية مختلفة، انظر: محمد بن عبدالله الأحسائي، مصدر سابق، ص ص ٣٤، ٣٧-٣٨، ٤٢-٤٥.

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
العدد الأول المحرم ١٤٢٣هـ السنة الثامنة والعشرون



منه أهل نجد، ويتصلون بالعالم الخارجي، ويعودون عن طريقه مرة أخرى مع غيرهم ممن زاروا المنطقة.

اكتسبت منطقة الأحساء أهميتها من كونها واحة زراعية، ومن موقعها على الخليج العربي، ذلك المعبر المائي الذي يربطها بالعالم الخارجي. ولقد استقطبت الأحساء اهتمام الرحالة الغربيين عندما ظهرت دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب في القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي، التي قامت على أساسها الدولة السعودية الأولى، ووحّدت معظم أرجاء الجزيرة العربية بشكل قويّ لم يسبق له مثيل في تاريخ الجزيرة العربية منذ ظهور الإسلام والدولة الإسلامية في المدينة المنورة.

تسهم كتب الرّحّالة الغربيين في إضفاء بُعْد مختلف لحياة تلك الفترات من تاريخنا، التي لم يُقَدَّر لها أن تدوّن من قبل أهالي البلاد. كانت الكتابات المحلية نادرةً جدًا، وشحيحة في أخبارها التي كثيرًا ما تركزت على الأخبار السياسية. أما الرحالة فإن كتاباتهم مع ما فيها من محذورات[٣]، إلا أنها تبقى مصدرًا لا غنى عنه لدارس تاريخ هذه البلاد وذلك للأسباب الآتية:

أولاً: قَدِمَ هؤلاء الرحالة إلى المنطقة في أوقات ساد فيها الجهل ولذلك لم يدوّن معظم تاريخها.

ثانيًا: جاء هؤلاء الرحالة من ثقافات مختلفة، ومعظمهم من العلماء، ولذا فإن كتاباتهم في معظمها تتسم بالنضج العلمي.

ثالثًا: اشتملتْ كتابات هؤلاء الرحالة على موضوعات اجتماعية واقتصادية، غالبًا ما تهمل في الكتابات المحلية في حالة توفرها.

---

(٣) حول هذا الموضوع انظر: جمال زكريا قاسم، الدوافع السياسية لرحلات الأوربيين إلى نجد والحجاز، دراسات تاريخ الجزيرة العربية، الكتاب الأول، الجزء الثاني، الرياض، ١٣٩٧هـ، ص٩ - ٢١.

رابعًا: رصد كلُّ رحالة مشاهداته وانطباعاته عن المجتمع أثناء مروره وإقامته في المنطقة، ومن ثم يمكن مقارنة وصف كلّ رحالة بسابقيه ولاحقيه، لملاحظة ما حدث من تغيرات وتطورات.

خامسًا: ينظر هؤلاء الرحالة إلى مجتمعاتنا من زاوية مختلفة، ولذا فهم يتمكّنون من رصد ظواهر وملحوظات ربما ينظر لها غيرهم من أهل البلاد على أنها أمور عادية لا تستحقّ الرصد.

كان كارتسن نيبور (Carsten Niebuhr) رائدًا وأنموذجًا لمن تلاه من الرحالة الغربيين إلى الجزيرة العربية. جاء نيبور في بعثة مكونة من خمسة علماء، أرسلها ملك الدانمرك سنة ١٧٦٢م، ولم يبق منهم على قيد الحياة إلا نيبور(٤). تمكن نيبور الذي لم يحس بأي شعور من التعالي تجاه أهل البلاد من تدوين أخبار رحلته في غرب وجنوب غرب الجزيرة العربية، ومنها إلى الهند، وأخيرًا إلى الخليج العربي والأحساء. وتزامن وصول نيبور إلى الجزيرة العربية مع ظهور دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، ولهذا كان هو أول من نقل أخبارها إلى أوربا(٥).

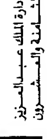
تواصل قدوم الرحالة الغربيين إلى الجزيرة العربية في أوائل القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي، وتميّز من بينهم جون لويس بوركهارت (John L. Burckhardt)، لكنّ تنقلاته لم تصل به إلى شرق الجزيرة العربية(٦).

---

(٤) جاكلين بيرين، اكتشاف جزيرة العرب، ترجمة قدري قلعجي، الرياض: الفاخرية، د. ت، ص١٤٦ - ١٧٨.

(5) Zahra Freeth and H.V.F Winstone, Explorers of Arabia, London: George Allen and unwin, 1978, pp. 86-87.

(٦) من أهم أعماله التي ترجمت "رحلات في شبه جزيرة العرب" ترجمة د. عبدالعزيز الهلابي، ود. عبدالرحمن الشيخ، بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ.



بعد سقوط الدولة السعودية الأولى وتدمير الدرعية، قدم ضابطٌ بريطانيٌّ يدعى جورج فورستر سادلير (George F. Sadlier) من الخليج يريد الاتصال بإبراهيم باشا، في محاولة لتنسيق المواقف تجاه القواسم في الخليج. كان سادلير يتوقع أن يجد إبراهيم باشا في الدرعية، ولكنه وجده قد خرج منها في طريقه إلى مصر، فلحق به حتى التقاه عند آبار علي قرب المدينة المنورة(٧).

ابتدأ سادلير رحلته من القطيف في شهر يونيو سنة ١٨١٩م/١٢٣٤هـ، ومنها إلى الأحساء، ثم إلى رماح فمنفوحة والدرعية. ويعدّ هذا الرحالة أول أوربيٍّ يجتاز الجزيرة العربية من شرقها إلى غربها، وقد دوّن مرئياته خلال رحلته فيما يشبه اليوميات، معرّفًا بالقرى والبلدان والآبار والمواقف التي مر بها، فقد مرّ بالأحساء وأعطى وصفًا جيدًا لها، وكذلك الدرعية التي مرَّ بها بعد تدميرها بأشهر عدة(٨).

شهد النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي تنافسًا استعماريًا عالميًا، لكنّ بريطانيا بما لها من قوة اقتصادية وعسكرية استطاعت أن تحصل على نصيب الأسد من تلك المنافسة، كما شهدتِ تلك الفترة قدوم عدد من الرحالة، ولكنّ نشاطهم تركز على شمال الجزيرة العربية التي بدأ ينتقل إليها مركز الثقل السياسي نتيجةً لقيام إمارة آل رشيد وازدهارها وتوسعها حتى استطاعت أخيرًا الاستيلاء على كل منطقة نجد(٩). كان من بين هؤلاء الرحالة الغربيين وليم بلغريف الذي تمكّن من القدوم من شمال

---

(٧) للمزيد من المعلومات انظر: ج. فورستر سادلير، رحلة عبر الجزيرة العربية خلال عام ١٨١٩م، ترجمة أنس الرفاعي، دمشق: دار الفكر، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٣م.

(٨) ج. فوستر سادلير، مصدر سابق، ص ص ٧١ - ٧٢، ٨٥ - ٨٦.

(٩) حول هذا الموضوع انظر: عبدالله الصالح العثيمين، نشأة إمارة آل رشيد، الطبعة الثانية ١٤١١هـ، ص ص ١٦-١٧.

غرب الجزيرة، مرورًا بحائل ثم الرياض، وانتهاء بالأحساء ومنطقة الخليج العربي. وقد تضمن كتاب وليم بلغريف معلومات كثيرة عن حائل والرياض والأحساء وغيرها من المناطق التي زارها خلال رحلته ما بين سنتي ١٢٧٩هـ/١٨٦٢م - ١٢٨٠هـ/١٨٦٣م(١٠). لكنّ هذه الرحلة التي لقيت قبولاً واسعًا لدى القراء أثارت جدلاً بين العلماء حول مصداقية بلغريف، بل إنّ هناك من شكّك في قدومه إلى الجزيرة العربية، ونتيجة لذلك حاول من تبعه من الرحالة تتبع ملحوظاته، ومقارنتها على أرض الواقع(١١).

استمر تدفّق الرحالة الغربيين إلى الجزيرة العربية، وإلى منطقة الخليج العربي بصفة خاصة، وازداد بشكل ملحوظ في أوائل القرن الرابع عشر الهجري / العشرين الميلادي نتيجةً لتعاظم الأنشطة السياسية الدولية، والتغيرات التي عرفتها المنطقة في تلك الفترة، وكان من أبرز تلك التغيرات استرداد الأحساء من العثمانيين على يد الملك عبدالعزيز(١٢) سنة ١٣٣١هـ/١٩١٣م(١٣).

تفاوتت مهمّات هؤلاء الرحّالة، ما بين الاستكشاف العلمي والبعثات السياسية إلى جمع المعلومات الاستخبارية، أو جمع عيّنات من الطيور والحيوانات والنباتات والحشرات، وسيكون التركيز في هذا البحث على دراسة ما كتبه بعض هؤلاء الرحالة الغربيين الذين قدموا إلى الجزيرة العربية، ومروا بالأحساء في أوقات مختلفة، ودوّنوا لنا مشاهداتهم وانطباعاتهم عنها، وكأنهم جاؤوا ليهيئوا لنا ما

(10)William G. Palgrave, Narrative of a year's Journey Through Central and Eastern Arabia (1862-63) Two vols, London: Macmillan and co, 1865.

(١١) حول هذا الموضوع انظر: جاكلين بيرين، مصدر سابق، ص ص ٢٩٨ - ٣٢٢.

(١٢) من المعروف أن الملك عبدالعزيز لم يطلق عليه لقب ملك إلا بعد سنة ١٣٤٤هـ؛ ولهذا فإن إطلاق هذا اللقب عليه في الفترات السابقة يعد من قبيل التجاوز.

(١٣) أمين الريحاني، تاريخ نجد الحديث، بيروت: دار الجيل، الطبعة السادسة، ١٩٨٨م، ص ص، ٢٠٥ - ٢١١.

يعرف بكبسولة أو كبسولات الزمان (Time Capsule)، مما يعد - بلا شك - مصدرًا من مصادر تاريخ هذه المنطقة المهمة من المملكة العربية السعودية، وسيتم ذلك بدراسة نماذج من أعمال خمسة من الرحالة الغربيين الذين تعاقبوا على تلك المنطقة في أوائل القرن الرابع عشر الهجري / العشرين الميلادي، وقد تم التركيز على هؤلاء الخمسة لأنهم زاروا المنطقة في أوقات متفاوتة تراوحت المدة الفاصلة بين مجيء كلٍّ منهم من سنوات عدة إلى أكثر من عقد من الزمن، مما يمكننا من ملاحظة التغيرات والفوارق بين رواياتهم.

تحتلّ هذه الفترة الزمنية موقعًا مهمًا من تاريخ المنطقة بشكل عام، ومن تاريخ الأحساء بشكل خاص، فقد شكّلتْ مرحلةً انتقاليةً من حياة لم تتعرّض إلا للقليل من التغيير عما كانت عليه منذ زمن قديم، إلى حياة بدأت تشهد تطورات سياسية واجتماعية واقتصادية مهمة، لم يقتصر تأثيرها في مستقبل تلك المنطقة فحسب، بل على مستقبل البلاد بشكل عام، وسنحاول في هذه الدراسة معرفة مدى ما أسهمت به روايات هؤلاء الرحالين لتاريخ الأحساء الحديث، وكذلك رصد التمايز والتكامل بينها.

١- وليام هنري شكسبير (William H. Shakespear):

ولد وليام هنري إرفن شكسبير في بلدة مولتان (Multan) بإقليم البنجاب في الهند يوم ٢٩ أكتوبر سنة ١٨٧٨م، وكان والده يعمل في قسم الغابات في الهند، وعندما بلغ وليام التاسعة من عمره عاد مع أمه وأخويه إلى بريطانيا للدراسة(١٤)، والتحق بعد ذلك بكلية الملك وليام ثم بكلية ساندهيرست (Sandhurst) العسكرية، وبعد تخرجه من تلك الكلية العسكرية عمل في الجيش البريطاني بالهند، وأبدى العديد من المهارات، ومنها إجادة اللغة الأردية، والبشتو، والفارسية، والعربية. عين في سنة ١٩٠٤م قنصلاً لبريطانيا في بندر عباس، ثم

(14) H.V.F. Winstone, Captain Shakespear, Aportrait,Jonathan cape Ltd, London, 1976 pp. 30-31.

نقل إلى بوشهر مساعدًا لبرسي كوكس (المقيم السياسي البريطاني)، وأخيرًا حطّ به المقام في الكويت وكيلاً سياسيًا لبريطانيا(١٥)، وقد أظهر شكسبير براعة في تكوين علاقات مع أمير الكويت الشيخ مبارك، وكذلك مع البدو في الصحراء، كما أن قدومه إلى الكويت جاء في وقت احتدم فيه التنافس الدولي في منطقة الخليج العربي في فترة ما قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى. من ناحية أخرى كانت المنطقة تشهد تنافسًا قويًا بين القوى المحلية؛ إذ كانت سياسة بريطانيا طوال القرن التاسع عشر الميلادي / الثالث عشر الهجري تركّز على الخليج العربي وسواحله، لكنها بدأت في التغير تجاوبًا مع المتغيّرات الإقليمية والدولية ولهذه الأسباب كان شكسبير حريصًا على دراسة المنطقة والتعرف على جغرافيتها وسكانها وحيواناتها ونباتاتها. قام شكسبير في هذا الإطار أثناء وجوده في الكويت بست رحلات استكشافية في شرق الجزيرة العربية، بالإضافة إلى رحلته الطويلة التي قام بها سنة ١٩١٤م عبر الجزيرة العربية من الكويت إلى الرياض، فالقصيم، والجوف، وأخيرًا إلى السويس(١٦). قطع شكسبير في هذه الرحلة مسافة (١٨١٠) أميال، منها حوالي (١٢٠٠) ميل في منطقة غير معروفة، وليس لها خرائط. ويكفي للتدليل على أهمية هذه الرحلات معرفة أنه بعد أشهر عدة من إتمام هذه الرحلة كان مكتب الحرب البريطاني منكبًا على دفاتر ملحوظات شكسبير لعمل خرائط لتلك المنطقة(١٧). (انظر خرائط ومخططات سير تلك الرحلات في صفحات الغلاف الداخلية من كتاب Winstone).

(15) H.st.J.b. Armitage, King Abdulaziz And the English Connection: Captain William Shakespear and his Successors. Conference on the Kingdom of Saudi Arabia: 100 Years, pp. 4-5.

(١٦) أحمد العناني، رحلات الكابتن وليم آيرفن شكسبير، دراسات تاريخ الجزيرة العربية الكتاب الأول، الجزء الثاني ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ص ص ٤٧٠-٤٨٠؛ و Winstone, op. cit, p. 11.

(17)Winstone, op. cit, p p. 183 - 184.

كان شكسبير قد التقى الملك عبدالعزيز عند زيارة الأخير للكويت سنة ١٣٢٨هـ/١٩١٠م، وخلّد لنا تلك الصورة الأولى للملك عبدالعزيز في شبابه. وقام شكسبير في العام التالي برحلة إلى منطقة الأحساء، وقرب ثاج[١٨] التقط صورةً تاريخيةً شهيرةً لجيش الملك عبدالعزيز أثناء سيره حاملاً الرايات الموشحة بكلمة (لا إله إلا الله محمد رسول الله)[١٩]، وقد قابل الملك عبدالعزيز في مخيمه قرب ثاج، وأمضى ثلاثة أيام في مخيمه، وكانت المحادثات بطريقة غير رسمية، ولكنها بالغة الأهمية؛ إذ كان الحديث يدور في مجمله بشأن مستقبل الأحساء السياسي، بالإضافة إلى حملة الشريف حسين بن علي على نجد سنة ١٣٢٨هـ/١٩١٠م، وقد شدّد شكسبير خلال ذلك اللقاء على أن الحكومة البريطانية لن تفعل شيئًا يخلّ بالوضع القائم بتأييدها لأيّ تحدٍّ للسلطة التركية (العثمانية) في الجزيرة العربية[٢٠]، كما استغلّ شكسبير فرصة وجوده في منطقة الأحساء، وامتطى ظهر ذلوله "ظبية" لزيارة خرائب ثاج محققًا قصب السبق في اكتشافها، ورسم ما عليها من كتابات قديمة[٢١]. كانت تلك النقوش لكتابات قيل في بداية الأمر: "إنها حميرية أو سبئية"، ثم قيل: "إنها أحسائية"، وقد نال ذلك الاكتشاف تقدير علماء الآثار واحترامهم[٢٢].

---

(١٨) تقع ثاج على بعد (١٥٠) كم من الظهران، وهي بلدة موغلة في القدم، وبها خرائب أثرية، والآن هي إحدى هجر قبيلة العوازم. انظر: حمد الجاسر، المعجم الجغرافي، المنطقة الشرقية، مصدر سابق، ص ص٣٠٧-، ٣٣١.

(١٩) الشكل رقم (٢٤) مقابل ص ١٧٦ من كتاب: Winston, OP. Cit, P.176.

(20) Armitage, op. cit, pp. 6-7, Winstone, op. cit, pp. 102 - 104.

(21) Winstone, op. cit, pp. 100-101.

(٢٢) للمزيد من الاطلاع حول تسمية هذا النوع من الكتابات انظر: دانيال بوتس، ثاج في ضوء الأبحاث الحديثة، أطلال ٧ (١٤٠٣هـ ١٩٨٣م)، ص ص ٧١-٧٤ .

H. R. P. Dickson, The Arab of The Desert, London: George Allen & Unwin LTD, Fifth Impression, 1972, PP. 596-600.

لزم الملك عبدالعزيز في هذه الفترة تفكيرٌ جادٌّ حول استعادة الأحساء، وبينما كان مخيمًا في الخفس سنة ١٣٣١هـ/١٩١٣م يجهز قوّاته قبل الانطلاق للأحساء مرّ به شكسبير، ومكث معه في المعسكر مدة خمسة أيام(٢٣). مما لا شكّ فيه أن الملك عبدالعزيز يعرف مدى قوة العثمانيين من خلال حروبه معهم في القصيم، ولذا ربما كان يحاول استطلاع الموقف البريطاني حيال خطوته القادمة. بعد عودة شكسبير من رحلته رفع تقريره إلى السيد برسي كوكس الذي علّق عليه قبل أن يرفعه إلى حكومة الهند بالآتي: "لقد استولى ابن سعود على الأحساء دون صعوبة تذكر"(٢٤)، وذكر شكسبير في تقريره أيضًا أنه قد فوجئ بسرعة استيلاء الملك على الأحساء، وكيف أنه لم يكن ليختار أحسن من هذا التوقيت للقيام بذلك، وقد أدار الأمر بحكمة من خلال اتصاله برجالات الأحساء.

من ناحية أخرى كان الاهتمام البريطاني في تلك الفترة منصبًا على أهمية العلاقات التركية - البريطانية، فقد كان موقف المسؤولين البريطانيين في الخليج العربي وحكومة الهند - البريطانية يفضل فتح علاقات مع الملك عبدالعزيز، بخلاف وزارة الخارجية التي حسمت الموضوع على أن الموقف البريطاني هو: "الكفّ عن التدخّل بطريقة مباشرة أو غير مباشرة في شؤون نجد"(٢٥). هكذا كانت سياسة بريطانيا تجاه التطورات الأخيرة في الأحساء، لكنّ السيد برسي كوكس رأى - على الرغم من ذلك - ضرورة التقاء المسؤولين البريطانيين الملك عبدالعزيز.

تنص التعليمات البريطانية على قصر نشاط شكسبير على الكويت، وعلى الرغم من ذلك رأى كوكس ضرورة مصاحبة شكسبير

(23) Ibid, P. 134.

(24) Armitage, op. cit, p. 9.

(25) Ibid, p. 9.



للوكيل السياسي البريطاني في البحرين الرائد تروفر (Trevor) وذلك من أجل مقابلة الملك عبدالعزيز في العقير سنة ١٣٣٢هـ/١٩١٣م. ولما وصل المندوبان البريطانيان إلى هناك على ظهر قارب زوّدهما به السيد عبدالله القصيبي ممثّل الملك في البحرين[٢٦]، شرح الملك عبدالعزيز موقفه بعد ضمه للأحساء، محاولاً إقناع بريطانيا بالاعتراف به، ولكنه وجه بالموقف البريطاني التقليدي القاضي بعدم الإخلال بالعلاقات العثمانية - البريطانية، من جراء التدخل في شؤون الجزيرة العربية.

شكسبير لم يدون ملحوظاته ومشاهداته وانطباعاته في مؤلف يحمل اسمه

يختلف شكسبير عن غيره من الرحالة، إذ إنه لم يدون ملحوظاته ومشاهداته وانطباعاته في مؤلف يحمل اسمه، والسبب في ذلك أنه توفي بشكل مفاجئ في معركة جراب سنة ١٣٣٣هـ/١٩١٥م[٢٧]، وهو ما يزال على رأس عمله، ويقوم بمهماته منطلقاً من الكويت.

نلحظ بشكل عام أن ملحوظاته عن منطقة الأحساء كانت قليلة، وانحصر معظمها في الميدان السياسي والجغرافي والطبوغرافي؛ إذ كان خلال رحلاته التي مر خلالها بشرق الجزيرة يصف مواقعها وموارد المياه بها وبعض مواقعها التاريخية، مثلما عمل في زيارته لثاج. من ناحية أخرى فإن شكسبير لم يتمكن من زيارة الهفوف أو القطيف، ولكن مما لا شك فيه أن رحلاته وملحوظاته مهّدت الطريق لمن أتى بعده من المغامرين الأوربيين.

دوَّن شكسبير خلال ترحاله في الجزيرة العربية العديد من الملحوظات في دفاتر أسفاره المحفوظة لدى الجمعية الجغرافية

---

(26) Winstone, op. cit, pp. 139-141. Arimtage, op. cit, pp. 9-10.

(٢٧) عن ظروف وفاة شكسبير انظر: خير الدين الزركلي، شبه الجزيرة العربية في عهد الملك عبدالعزيز، بيروت: دار العلم للملايين، الطبعة الثالثة، ١٩٨٥م، ص ص ٢٢١-٢٢٢، ٢٨٢-٢٨٤.

الملكية البريطانية(٢٨). وأخيرًا فإن أوراق شكسبير المحفوظة لدى هذه الجمعية تعدّ مصدرًا أوليًا مهمًا لتاريخ تلك الحقبة من تاريخ المملكة العربية السعودية؛ ولهذا يجب الاهتمام بها، وجمعها، ونشرها، وتسهيلها للباحثين.

٢- باركلي رونكيير (Barclay Raunkiaer):

قدم هذا المغامر الدانمركيُّ إلى الجزيرة العربية سنة ١٣٣٠هـ/١٩١٢م وعمره (٢٣) سنة، في وقت اشتدّ فيه التنافس الأوربي، ومن ثم ازداد اهتمام الرحالة الغربيين بالجزيرة العربية.

كانت الرياض قد انتعشت بعد أن أصبحت عاصمة مرة أخرى؛ ولهذا أصبحت مركز استقطاب، حرص الرحالة على المرور بها ومقابلة حكامها، ومعرفة أحوال سكانها. ذكر رونكيير في مقدمة كتابه الفارق الكبير بين المعلومات المتوافرة عن غرب الجزيرة العربية مقارنة مع شرقها الذي ما يزال مجهولاً بالنسبة للغربيين، ومن هذا المنطلق وفي محاولة لإعادة أمجاد مواطنه كارستن نيبور، شكّلت لجنةٌ من قبل الجمعية الجغرافية الملكية الدانمركية لدراسة مشروع رحلات استكشافية أخرى لقلب الجزيرة العربية، وقد توصّلت هذه اللجنة إلى ضرورة التركيز أولاً على المنطقة التي ستبدأ منها الرحلة، ولذا فإن عليها التوجّه إلى البحرين، ومنها إلى القطيف أو العقير، ومنها إلى الهفوف(٢٩).

تقدّمت الجمعية الجغرافية الملكية الدانمركية في سنة ١٩٠٩م بطلب إلى الحكومة البريطانية، عن طريق سفيرها في كوبنهاجن، من أجل السماح بسفر بعثة علمية إلى الخليج العربي والأراضي المجاورة له، وبعد أخذٍ وردٍّ بين الطرفين استمرّ لمدة عامين تقريبًا أظهرت

(28) Winstone, op. cit, p. 11.

(٢٩) باركلي رونكيير، عبر الجزيرة العربية على ظهر جمل، ترجمة منصور محمد الخريجي، الرياض: مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ، ص ص ٤١-٤٣.

خلاله بريطانيا شكوكًا كثيرة في أهداف البعثة ونواياها، ولم توافق الحكومة البريطانية على طلب الجمعية الجغرافية الملكية الدانمركية. وعلى الرغم من هذه النكسة قرّر (رونكيير) أحد أعضاء البعثة أن يقوم بهذه المهمة وحيدًا[٣٠].

كانت الأحساء هدف هذه البعثة الاستكشافية، مع توجيه بأن تتعمق قدر الإمكان نحو الغرب والجنوب الغربي. من ناحية أخرى نالت البعثة موافقة الحكومة العثمانية على زيارة الأحساء، وجاء رونكيير وحيدًا، ولكن لم يُقدّر له أن يتوجّه إلى الأحساء مباشرة كما كان مقررًا، بل كانت المحطةَ الأخيرة. ابتدأ هذه الرحلة من بغداد إلى الكويت، وحاول من هناك الذهاب إلى الأحساء، ولكنّ تسويف الشيخ مبارك وتردده جعله يختار طريقًا آخر يمر بنجد.

كانت السلطات البريطانية تتّبع وترصد حركاته، خاصةً عندما علمت أنه التقى والي البصرة العثماني في الفندق (International Hotel)، وكانت الألمانية لغة الحوار، وعندما علم المقيم البريطاني في الخليج بوصوله إلى الكويت بعث رسالة إلى الوكيل السياسي البريطاني (شكسبير) هناك تقول: "فضلاً أخبر شيخ الكويت بأنّ حكومة الهند لا ترغب في أن يحصل ذلك المستكشفُ الدانمركيُّ على أيّة مساعدة"[٣١].

وعلى الرغم من معرفة شكسبير بالجانب السياسي لهذه البعثة فقد قام بأمر مهم سهل لرونكيير القيام برحلته من الكويت إلى الزلفي، مرورًا ببريدة والرياض، ثم أخيرًا إلى هدفه الأحساء[٣٢]، وقد أسفرتْ هذه الرحلة عن كتاب بعنوان "عبر أرض الوهّابيين على ظهر الجمل"، طبع في كوبنهاجن سنة ١٩١٣م.

---

(30)Winstone, op. cit, pp. 109 - 110.

(31) Ibid, p. 110.

(٣٢) باركلي رونكيير، مصدر سابق ص ص ٤٢ – ٤٣، ٥٩.

بقي هذا الكتاب حبيس لغته الدانمركية لفترة طويلة من الزمن، ولم يطّلع عليه إلا عدد محدود من الناس، وعندما اندلعت الحرب العالمية الأولى ترجم هذا الكتاب إلى اللغة الإنجليزية على عجل في إنجلترا، وعدّلت الترجمة في القاهرة وصدر سنة ١٩١٦م في طبعة خاصة من (١٠٠) نسخة[٣٣] ذكر دو جوري في تقديمه لترجمة الكتاب بالإنجليزية، التي صدرت بعد مرور أكثر من خمسين عامًا على صدور طبعة القاهرة، أن السيد دوجلاس كاروثرز (Douglas Carruthers) - الرئيس الفخري للجمعية الجغرافية الملكية خلال سنوات الحرب العالمية الأولى - هو صاحب مبادرة إرسال نسخة من هذا الكتاب إلى المكتب العربي في القاهرة. وقد نشر السيد كاروثرز مراجعة للكتاب في مجلة الجمعية سنة ١٩١٤م، ولم يكن هذا هو الكتاب الوحيد الذي زُوّد به المكتب العربي في القاهرة[٣٤]، ومما لا شك فيه أن ترجمة الكتاب وإرساله على وجه السرعة للقاهرة للطباعة والاستخدام الرسمي يدخل في نطاق الجهود الحربية البريطانية في أثناء الحرب. من ناحية أخرى فإن هذا يدل على أهمية الكتاب، ومدى الحاجة إليه، والتعطش إلى أية معلومات عن الأحساء وشرق الجزيرة العربية، وقد بقي هذا الكتاب على حاله غير معروف بعد أن نفدتْ نسخه، وأصبح في عداد النوادر حتى انبرى له بعد مرور نصف قرن من الزمان رحّالةٌ آخر هو السيد جيرالد دي جوري (Gerald de Gaury)، وترجمه إلى الإنجليزية[٣٥].

(33) Barclay Raunkiaer, Through Wahhabiland on Camel Back, Translated by Gerald de Gaury, London: Routledge and Kegan paul, Ist edition, 1969, pp. 2-3.

(34) Ibid, P. 3.

(٣٥) عن قصة العثور على الكتاب وملابسات ترجمته انظر: Ibid, P,1-16، وكذلك الترجمة العربية، ص ص٢١ - ٢٧.

حصل هذا الشاب (رونكيير) الدانمركي على قصب السبق، فهو أول أوربيٍّ يزور الرياض بعد استعادتها على يد الملك عبدالعزيز سنة ١٣١٩هـ/١٩٠٢م، وبعد رحيله عنها بأشهر عدة قدم إليها رحالة بريطاني آخر هو جيرالد ليتشمان[٣٦]، وما لا شك فيه أن مخاوف البريطانيين جعلتهم يبعثون ليتشمان لتقصي أخبار رونكيير[٣٧]. وقد وُفّق هذا الأخير في مقابلة الأمير (الملك) عبدالعزيز في الرياض الذي كان منهمكًا (في ذلك الوقت) في الإعداد لخطة ضم الأحساء، ونتيجةً لذلك ثارت شكوكه في نوايا ليتشمان، وعلى الرغم من ذلك استقبل استقبالاً جيدًا في الرياض، ولكنه فشل في إقناع الملك عبدالعزيز بالموافقة على طلبه للذهاب إلى يبرين والربع الخالي[٣٨]، وبدلاً من ذلك أرسله إلى المتصرف العثماني في الأحساء، وربما أنه أراد بذلك إزالة ما لدى العثمانيين من شكوك في نواياه (أي الملك عبدالعزيز) تجاه غزو الأحساء. مرةً أخرى لم يفلح ليتشمان في إقناع العثمانيين بالسماح له باجتياز الربع الخالي، فلم يكن لديه من خيار سوى مغادرة الأحساء عن طريق ميناء العقير[٣٩].

أما رونكيير فعندما وصل الرياض علم أن الملك عبدالعزيز قد غادرها قبل يومين للقيام بحملة عسكرية، لكن يبدو أن الأمر لم يكن مصادفة لأن الملك عبدالعزيز تلقى رسالة من الشيخ مبارك وشكسبير يحذّرانه فيها من هذا الرحالة؛ لذا اختار أن يغادر الرياض في حملة ربما كان مخططًا لها مسبقًا، كما ذهبت بعض المصادر إلى

---

(36) Robin Bidwell, Travellers in Arabia, London: The Hamlyn publishing Group limited, 1976, p. 158. And Armitage, op. cit, pp. 7-8.

(٣٧) وليام فيسي، الرياض، المدينة القديمة، ترجمة عبدالعزيز بن صالح الهلابي، الرياض: مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، ١٤١٩هـ، ص٣١٤.

(38) The Unveiling of Arabia, R.H. Kiernan, London: George G. Harrap and co. LTD, lst. Edition, 1937, pp. 292-294.

(٣٩) جمال زكريا قاسم، مصدر سابق، ص٢١، و Armitage, op. cit, p.8.

القول: إنه عند زيارته للرياض كان عميلاً لألمانيا وتركيا (الدولة العثمانية)[٤٠].

على أية حال لقي رونكيير استقبالاً جيدًا واهتمامًا من قبل الإمام عبدالرحمن الذي أنزله في بستان يقع شرق الرياض ربما يكون بستان الشمسية[٤١] الذي نزل فيه شكسبير عند زيارته للرياض بعد عامين من تلك الزيارة (سنة ١٣٣٢هـ/١٩١٤م)[٤٢]، وقد سهل الإمام عبدالرحمن ترتيبات سفر ضيفه مع قافلة متجهة إلى الوجهة التي يريدها وهي الأحساء، وقد أورد رونكيير معلومات جيدة عن هذه القافلة وتكوينها، والطريق الذي سلكته حتى وصلت الأحساء، وكان عدد المسافرين في هذه القافلة مئة وخمسة وسبعين شخصًا، منهم ثلاثون شخصًا يمتطون الجمال. أما البقية الباقية فهم "مجموعةٌ من المشاة الحفاة العراة"، معظمهم من الشباب، لا يملكون شيئًا، وهم في طريقهم للعمل في صيد اللؤلؤ بالخليج العربي[٤٣]. ويجب أن نلحظ هنا أن هذا العدد من الشبان المسافرين مع القافلة بحثًا عن لقمة العيش كان قبل ضم الملك عبدالعزيز للأحساء بعام واحد؛ ولهذا فلا بد أن هذا العدد تضاعف في السنوات اللاحقة.

اهتم رونكيير كذلك بوصف الطريق والمحطات التي توقفت فيها الحملة، ولكنّ معظمها غيرُ مفهوم، والسبب بلا شك يعود إلى عدم إجادته للغة العربية؛ فهو يكتب الأشياء كما يسمعها تُنطق، وهو بهذا يفقد بعض الحروف أو يغيّرها، يضاف إلى ذلك أن الرحلة كتبتْ

(٤٠) وليام فيسي، مصدر سابق، ص ص ٣١٥-٣١٦. وعلي مفلح المحافظة، العلاقات السعودية - البريطانية في أثناء الحرب العالمية الأولى ١٩١٤-١٩١٨م، بحوث مؤتمر المملكة العربية السعودية في مئة عام، ص٨.

(٤١) حول هذا المكان انظر: خالد بن أحمد السليمان، معجم مدينة الرياض، الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، الطبعة الثانية، ١٤١٩ هـ، ص ٥١.

(٤٢) باركلي رونكيير، مصدر سابق، ص ص ١٧٢-١٧٥، و Winstone, op. cit, P.158.

(٤٣) المصدر السابق، ص١٧٩.

باللغة الدانمركية، ومنها إلى الإنجليزية، وأخيرًا إلى العربية. لكن مما يؤخذ على هذه الترجمة العربية أن المترجم لم يهتم بالتوثيق والتدقيق والتعليق؛ ولهذا جاءت الترجمة خاليةً من الهوامش[٤٤].

بلغ رونكيير هدفه الأحساء بعد جهد جهيد، وأوشك على الموت من شدة المرض، ولكنه لقي حفاوةً وكرمًا من رجال الحامية العثمانية في الهفوف. وقد لحظ أثناء وجوده في الهفوف أن المدينة وما حولها تعج بالخارجين على القانون، ويحدث سلب ونهب في وضح النهار، وعلى مرأى من السلطات العثمانية، فحاول أن يجد تفسيرًا لذلك، فألقى باللوم بغير وجه حقٍّ على "المكايد الوهابية"، كما أردف بأن الإدارة العثمانية تتحمل جزءًا من المسؤولية[٤٥]. لقد نسي هذا الرحالة أنه خلال تجواله في الأراضي التابعة للملك عبدالعزيز لم يلحظ شيئًا من انقطاع الأمن كما هو الحال في الأراضي الخاضعة للعثمانيين في الأحساء. ولقد ذكر رونكيير نفسه أنه بعد خروجه من الرياض أرسل الإمام عبدالرحمن اثنين من رجاله أبلغا رجال القافلة بأنّ من يعتدي على (رونكيير) صديق ابن سعود سيكون جزاؤه القتل، وكان ذلك كافيًا لضمان سلامته طوال الرحلة[٤٦].

مكث رونكيير خمسة أيام في الهفوف، وغادرها يوم ١١ إبريل ١٩١٢م يصحبه خمسون فارسًا، إلى أن وصل إلى ميناء العقير.

هذه العناية الخاصة التي حظي بها رونكيير في الأحساء تُعزّز بشكل قويّ ما قيل عن أهداف هذا الرحّالة الذي أورد بعض الملحوظات بشأن الطريق وموارد المياه وجغرافية المنطقة، إلى أن وصل إلى الميناء، واستقلّ زورقًا شراعيًا إلى البحرين. وأخيرًا قفل

(٤٤) هناك مآخذ عدة على الترجمة العربية المذكورة، منها على سبيل المثال لا الحصر: عدم التعريف بالأماكن والأعلام والتصرف المخل في بعض الأحيان.
(٤٥) باركلي رونكيير، مصدر سابق، ص ص ١٩٠-١٩١.
(٤٦) المصدر السابق، ص ١٧٩.

عائدًا إلى بلده، ودون مشاهداته وانطباعاته في الكتاب الذي لقي استحسان بعض المهتمين بالرحلة إلى الجزيرة العربية(٤٧).

وعلى الرغم منْ حداثة سن هذا الرحّالة، وعدم إجادته اللغة العربية، فإنه تمكّن خلال هذه الرحلة الاستكشافية من تزويدنا ببعض المعلومات المهمة عن الجزيرة العربية بشكل عام، وعن الأحساء بشكل خاص. لقد سجل معلومات عن الحياة الفطرية والطبوغرافية والاجتماعية، كما زوّد كتابه ببعض الرسومات للبلدان التي مرّ بها، وببعض أنماط المساكن وأنواع الخناجر المستخدمة في الأحساء(٤٨).

لقد كان رونكيير سبّاقًا بين رحالة القرن العشرين الذين مرّوا بالأحساء، وأدلوا بدلوهم بشأن مسألة الرحّالة بلغريف (Palgrave)، وعن مدى مصداقيته، وقدومه إلى الجزيرة العربية، وقد قارن رونكيير بين روايات بلغريف ولويس بلي بشأن جغرافية وسط الجزيرة العربية وشرقها، وتوصَّل إلى أن ملحوظات الأخير (بلي) أكثر دقةً، بالإضافة إلى أن لدى صاحبها معرفة شاملة بجغرافيتها الطبيعية، وهو الشيء الذي لم يجده في روايات بلغريف عن المنطقة(٤٩).

كانت هذه الرحلة مثل غيرها من الرحلات الأخرى مصدرًا خصبًا استقى منه رجالاتُ الحرب والسياسة، والمستكشفون اللاحقون معلوماتهم عن الجزيرة العربية. ومن المفارقات العجيبة أنه إذا سلّمنا بأن هدف هذه الرحلة كان لخدمة المصالح الألمانية والعثمانية فإنّ البريطانيين كانوا أول المستفيدين منها؛ إذْ وظّفوا هذه المعلومات قبل غيرهم عند اندلاع الحرب، وذلك بترجمتهم لرحلة رونكيير على وجه

(٤٧) حول هذا الموضوع انظر: R.H. Kiernan, op. cit, p. 295، ومقدمة دو جوري للترجمة الإنجليزية من كتاب Raunkiaer, op. cit, p.1.

(٤٨) انظر هذه الرسومات (التي للأسف لم ترد في الترجمة العربية) في:

Raunkiaer, op. cit, pp. 131, 133, 147, 148, 152-3.

(49) Ibid, pp. 9-10.

السرعة، وطبعها في القاهرة، وقد وُزّعتْ نسخٌ من هذا الكتاب على رجالات بريطانيا في المنطقة أمثال تي. إي لورنس الذي أشاد به في تقديمه لكتاب بلاد العرب السعيدة (Arabia Felix) لمؤلفه بيرترام توماس(٥٠).

٣- عبدالله فيلبي (H. St. John B. Philby):

ولد هاري سينت جون برجر فيلبي (H. St. John B. Philby) في جزيرة سيلان يوم ٣ إبريل ١٨٨٥م/١٣٠٢هـ، وعندما بلغ من العمر ستَّ سنوات عاد مع أمه وإخوته إلى إنجلترا سنة ١٣٠٩هـ/١٨٩١م(٥١)، وابتدأ تعليمه في بريطانيا، ثم التحق بجامعة كيمبرج، وأظهر مهارة وتفوّقًا في تعلّم اللغات. ويبدو أن حنين الشرق أو سحره جذب فيلبي مرة أخرى إلى هناك، ولكن في هذه المرة إلى الهند؛ فقد أبحر فيلبي إلى الهند سنة ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م، والتحق بالخدمة المدنية في حكومة الهند البريطانية، مبتدئًا بذلك مشوارًا طويلاً في حياته العملية(٥٢). واستمر فيلبي في عمله بالهند حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى، فجيء به وغيره ممن يحسنون اللغة العربية إلى العراق سنة ١٣٣٣هـ/١٩١٥م. وكان السير برسي كوكس قد أصبح في ذلك الوقت كبير الضباط السياسيين للجيش الهندي البريطاني في العراق، (الفرقة D)، ورأى أنه لا بد من تجديد الاتصال بالملك عبدالعزيز بعد أن قُتل شكسبير في معركة جراب سنة ١٣٣٣هـ/١٩١٥م؛ لهذا قرّر كوكس إرسال فيلبي على رأس بعثة إلى نجد في مهمة ثلاثية، وكان المطلوب منها:

(50) Ibid, p. 1.

(51) H. St. J. B. Philby, Arabian Days, An Autobiography, London: Robert Hale Limited, 1948, pp. 3, 14.

(52) Ibid, pp. 29, 31-32, 34. Elizabith Monroe, Philby of Arabia, London: Quartet Books Limited, 1980, pp. 12, 14, 20- 21, 23,27, Robin Bidwell, op. cit, p. 96.

أولاً: حثّ الملك عبدالعزيز على دعم المجهود العسكري البريطاني ضد العثمانيين.

ثانيًا: محاولة تحسين العلاقات بين الملك عبدالعزيز وشيخ الكويت.

ثالثًا: محاولة تنقية الأجواء بين الملك عبدالعزيز وشريف مكة[٥٣].

وهكذا فتح باب الجزيرة العربية لفيلبي؛ حيث قُدّر له أن يوطد علاقته بالملك عبدالعزيز الذي أعجب به من أول لقاء، مما ساعده كثيرًا على السفر والتجوال في صحار وقفار مختلفة من المملكة العربية السعودية، وكان حصيلة ذلك عطاء فكريًا لم يجار من أي كاتب غربي آخر[٥٤]، وقد أصبحت أعمال فيلبي هذه مصدرًا لا غنى عنه لطلاب تاريخ الجزيرة العربية المعاصرة وآثارها وجغرافيتها. وقد أوردت إليزابث مونرو في كتابها عن فيلبي سردًا لأعماله بلغ ست صفحات[٥٥].

أصبحت أعمال فيلبي هذه مصدرًا لا غنى عنه لطلاب تاريخ الجزيرة العربية المعاصرة وآثارها وجغرافيتها

قدم فيلبي لأول مرة إلى الجزيرة العربية في البعثة السالفة الذكر سنة ١٣٣٧هـ/ ١٩١٧م بصفته رئيسًا لها عن طريق العقير - الأحساء ثم الرياض، فكان أولُ عمل علمي قام به، أن كتب كتابه الشهير "قلب جزيرة العرب" (The Heart of Arabia)، وهو ثمرة تجواله في تلك الرحلة، وكذلك رحلة أخرى قام بها إلى وادي الدواسر سنة

---

(٥٣) للمزيد عن هذا الموضوع انظر:

H.C. Armstrong , Lord Of Arabia : Ibn Saud , London :Kegan Paul , 1998, pp.141-143.And Elizabith Monroe, op. cit, pp. 66-67.

(54) George Rentz, philby as A Historian of Saudi Arabia,Studies in the History of Arabia, vol.1, part 2, 1979, p. 25.

(55) Elizabith Monroe, op. cit, pp. 307-313.



١٣٣٧هـ/١٩١٨م(٥٦).

يقع هذا الكتاب الذي صدر لأوّل مرة سنة ١٣٤١هـ/١٩٢٢م في جزأين، ويُعدُّ بحق سجلاً مهمًا وصادقًا لتاريخ تلك الفترة الزمنية الخطيرة من تاريخ البلاد؛ إذ كانتْ نارُ الحرب العالمية الأولى ملتهبةً، وتنهش أطراف الجزيرة العربية. أما على المستوى الداخلي فقد كانت البلاد في بداية تكوينها، وتعيش أحداثًا وتطورات مهمة، والملك عبدالعزيز يخطط لفترة ما بعد الحرب. جاء فيلبي إلى هذه البلاد وهي ما زالت بكرًا، والجهلُ يضرب أطنابه في كل جانب، وربّما أن حياة سكانها لم تتغير كثيرًا منذ مئات السنين؛ لهذا جاء وصف فيلبي - ذلك الغربيُّ المسلّح بسلاح العلم والمعرفة - فريدًا ومتميزًا؛ فقد ذكر في تمهيده للكتاب أنه يُلخّص ثمرة إقامته لمدة عام سعيد قضاه بين صحاري الجزيرة العربية وواحاتها، وأنه حاول بهذا أن يوجد سجلاً ليكون دليلاً صادقًا لمن يأتي بعده من الرحّالة الذين سيحملون الشعلة التي حملتها أيدٍ سبقتهم، مثلُ: نيبور، وبوركهارت...، كما أضاف قائلاً: "إن شعوري بالواجب يدفعني إلى التدوين يومًا بيوم، ويكاد يكون ساعة بساعة، ويشمل كلَّ شيء رأيته أو سمعته خلال تجوالاتي"(٥٧).

كان للأحساء نصيبٌ من هذه الرحلة المهمة، فقد ابتدأ فيلبي ما أسماه بالمغامرة الكبرى من ميناء العقير يوم ١٧ أكتوبر سنة ١٩١٧م(٥٨). فاق فيلبي غيره من الرحّالة الأجانب بدقته في الوصف، وفهمه للحدث، واهتمامه بالتفاصيل التي أهملها غيره من الرحالة الذين مروا بالأماكن نفسها التي مرّ بها؛ ومما ساعده على ذلك سعة

(56) H. St. J. B. Philby, The Heart of Arabia, Two vols, London: Cons LTD. 1922.

(57) Ibid, vol, 1, p. vii.

(58) H. St. J. B. Philby, Arabian Days, op. cit, p. 146.

اطلاعه، وخاصة على كتب الرحّالة السابقين، وعلى تاريخ المنطقة بشكل عام، بالإضافة إلى ذلك فقد كان فيلبي متمكنًا من اللغة العربية، وكان ذا طاقة فكرية وعلمية لا تنضب(٥٩). وصف فيلبي مدخل ميناء العقير، ثم استقبال أمير العقير للوفد باسم ابن سعود، لكنّ فيلبي لم يكتف بذلك الوصف، بل أورد الاسم الأول والأخير للأمير وهو عبدالرحمن بن خير الله، على حين أن تشيزمان(٦٠) الذي زار المنطقة بعد مرور ست سنوات (سنتحدث عنه لاحقًا إن شاء الله) اكتفى بذكر الاسم الأول فقط، وبالإضافة إلى ذلك أورد فيلبي بعض التفاصيل، منها أن الأمير من أهالي القطيف(٦١)، وقد أمضى أربع سنوات من العمل في العقير، ويرأس حامية يبلغ عدد أفرادها حوالي أربعين رجلاً مسلحًا(٦٢)، وقد تحدّث كذلك مع أمير العقير عن الأمن غير المسبوق الذي عمّ تلك المنطقة بعد توحيد الأحساء من قبل الملك عبدالعزيز، بخلاف ما كانت عليه الأحساء من فوضى في العهد العثماني، كما وصف العقير ومنشآت الميناء البسيطة، وذكر أن نسبة الجمارك ٨٪ على الصادرات والواردات، وتدفع في أغلب الأحوال بالرُّوبية، وكان بالميناء سبع سفن (dhows) تُفرّغ حمولتها المكونة من الأرز والسكر والقهوة، بالإضافة إلى صفائح الكيروسين الفارغة التي ذكر أنها تستخدم ليعبأ فيها التمر والسمن المعدّ للتصدير(٦٣). يُلْحظ

---

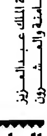
(٥٩) حول هذا الموضوع وعن حياة فيلبي في المملكة العربية السعودية انظر: حمد الجاسر، رحالة غربيون في بلادنا، الرياض، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٤١٧هـ، ص ص ٢٧٤-٢٨٤.

(٦٠) اطلع تشيزمان على كتاب فيلبي (قلب جزيرة العرب)، وكان من بين الكتب التي حملها معه في رحلته إلى الأحساء (سنتحدث عنها لاحقًا).

(٦١) عبدالرحمن بن سعدي بن خير الله من موالي آل سعود، وهو من أهل الأحساء، وما ذكره فيلبي من أنه من أهالي القطيف غير صحيح، ولكنه تولى إمرتها فيما بعد بين سنتي ١٣٥٠-١٣٥٤هـ. انظر: خالد الفرج، الخبر والعيان في تاريخ نجد، تحقيق ودراسة عبدالرحمن عبدالله الشقير، الرياض: مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ، ص١٢.

(62)H. St. J. Philby, The Heart of Arabia, op. cit, pp. 2-3.

(63)Ibid, p. 6.



أن العملة الأساسية في الجزيرة العربية هي الريال أو ما يسمى بدولار ماريا تريزا، وهو عملة نمساوية، تعرف عند كثير من الناس بالريال الفرانسي، وقد ناقش فيلبي بعد ذلك العملات المتداولة في الأحساء مثل الرُّوبيّة، وهي الأكثر انتشارًا، وكذلك البيزة، والطويلة التي تعد عملةً خاصةً بالأحساء فقط.

أجاد فيلبي في وصفه لصادرات الحضر والبدو في منطقة الأحساء، ولكنه يتميز عن غيره (وهذا انعكاس لنضجه وفطنته) بنظرته الشمولية، فها هو ذا يذكر أن الجمال تُعدّ بحق إنتاج البدو، ولم يكتف بذلك بل أردف قائلاً: إن اقتصاد البدو شهد ازدهارًا خلال سنوات الحرب الأربع الأخيرة، وذكر أن ذلك يعود لازدياد الطلب على الجمال، مما سبب ارتفاع أسعارها وارتفاع أجرة كرائها بين مناطق الجزيرة المختلفة(٦٤)، وقد كان دقيقًا في معلوماته؛ فقد ذكر أن أجرة كراء الجمل من الزلفي إلى الكويت تبلغ أكثر من ثلاثين دولارًا، وأن سعر الجمل يتراوح ما بين ثمانين إلى مئة وخمسين دولارًا(٦٥)، وقد حرص فيلبي على تضمين هذه المعلومات أثناء حديثه عن العقير والأحساء، وهو لم يكن في حاجة إلى كراء جمال؛ لأنها قد أحضرت وهيئت له من قبل حكومة الملك عبدالعزيز. ومن ناحية أخرى نجد أن رونكيير - وهو الذي اكترى جمالاً من الكويت - لم يذكر لنا شيئًا عن أسعارها ولا عن أجرة كرائها(٦٦).

لا شك أن فيلبي يعرف - بحكم عمله في العراق - مدى المشكلة التي تعاني منها بريطانيا بسبب تهريب البضائع من الكويت؛ إذ واجه البريطانيون أثناء سنوات الحرب مشكلة تهريب البضائع من

---

(64)Ibid, p. 8.

(٦٥) الدولار المقصود هو ما يعرف محليًا بالريال الفرانسي، وهو عملة نمساوية تسمى دولار ماريا تريزا (Maria Theresa Dollar).

(٦٦) انظر باركلي رونكيير، مصدر سابق، ص٨٦.

الكويت[٦٧] إلى المناطق الخاضعة للعثمانيين وحلفائهم في الجزيرة العربية وبلاد الشام، ومن وجهة النظر العسكرية البريطانية فإن تهريب البضائع ووصولها إلى الجيش (العدو) العثماني تضرّ بالمجهود الحربي البريطاني، ولكنها من ناحية أخرى تعود بالأرباح الطائلة على أولئك المهربين[٦٨]، وكان جزءًا من مهمة فيلبي محاولة حلّ تلك المشكلة.

واصل فيلبي وصفه لبعض الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية في الأحساء؛ ففي الميدان التجاري ذكر أن نصف التجارة السعودية (في ذلك الوقت ١٣٣٧هـ/١٩١٧م) يأتي عن طريق ميناء العقير، على حين يأتي النصف الآخر عن طريق ميناءي القطيف والجبيل. وقد وصف فيلبي طريق العقير - الهفوف، وقوافل الجمال والحمير البيض الأحسائية، وأردف بملحوظة اجتماعية طريفة، وذكر أن من بين الجمال المؤجرة جملين تملّكتهما سيدتان أثبتتا جدارتهما بين الرجال خلال السفر من العقير إلى الرياض. لم يكتف بذلك مثل غيره من الرحالة، بل أضاف أن أسعار الحمير الأحسائية تتراوح ما بين مئة إلى خمسين دولارًا[٦٩].

مرّ في طريقه إلى الهفوف بالجشة، وذكر اسم أميرها (أحمد بن صائل)، وقدّر عدد سكانها بحوالي ثلاثة آلاف نسمة، وأخيرًا وصل إلى الهفوف، ووصفها، ووصف أحياءها المختلفة: (الكوت والرّفعة والنعاثل)، وسكانها، وذكر أن عدد سكان الهفوف يبلغ ثلاثين ألف نسمة، وأنها أكبر مدينة في دولة ابن سعود في ذلك الوقت (١٩١٧م)، كما تحدّث عن ضاحية الصالحية (جنوب - شرق البلدة) التي تقع خارج السّور وهي حديثة نسبيًا، وكان معظم سكانها في السابق من

(٦٧) للمزيد عن هذه المشكلة انظر: عبدالعزيز رشيد، تاريخ الكويت، بيروت: دار مكتبة الحياة، (د. ط / د. ت)، ص ص ٢٣٨-٢٤٠.

(68)Elizabith Monroe, op. cit, p. 67.

(69)H. St. J. B. Philby, The Heart of Arabia, op. cit, PP.11-12,19.

الضباط والموظفين الأتراك وعوائلهم الذين لم يجدوا سكنًا داخل الكوت[٧٠].

كانت شخصية الأمير عبدالله بن جلوي[٧١] مؤثرة وقوية، وقد أعجب به فيلبي مثل غيره ممن زاروا الأحساء، وأورد نماذج من مواقفه وعدله، وقال عنه:"إنه أحد الرجال العظام في تاريخ الجزيرة العربية الحديث"[٧٢]. تميز فيلبي فيما كتبه عن الأحساء (وربّما عن غيرها من المناطق) بدقّة وصفه، وقدرته في الحصول على معلومات، لم يتمكن أو ربّما لم يهتمّ بها غيره. نرى مثلاً اهتمامه بعدد السكان، وعدد البيوت، والسوق الأسبوعي للهفوف، وغيرها من بلدان الأحساء. وقد كان دقيقًا في معلوماته عن أسماء الرجال؛ فمثلاً عندما التقى في العقير سلطان بن سويلم[٧٣] قال: إنه أخو أمير القطيف عبدالرحمن بن سويلم، وإنه كان في مهمة سرية من قبل ابن سعود إلى مسقط[٧٤]. وقد زار المبرّز، واستقبله أميرها محمد بن ثنيان، وصحبه إلى مجلس القضاء الخارجي الذي هو عبارةٌ عن مقعد من الطين ملاصق للجدار، كما وصف المبرّز بأنها أقل جمالاً من الهفوف، وقدّر عدد سكانها بحوالي (٢٠,٠٠٠) نسمة. بالإضافة

---

(70) Ibid, pp. 27-30.

(٧١) هو الأمير عبدالله بن جلوي بن تركي بن عبدالله، كان له أثر بارز في استرداد الرياض مع الملك عبدالعزيز، كما شارك في توحيد البلاد، وتولى إمارة بريدة سنة ١٣٢٦هـ، ثم إمارة الأحساء سنة ١٣٣١هـ حتى توفي سنة ١٣٥٤هـ. انظر: خير الدين الزركلي، شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز، بيروت: دار العلم للملايين، ط٣، ١٩٨٥م، ٤٥٩/٢-٤٦٢.

(72) H. St. J. B. Philby, Arabian Days, op. cit, p. 148.

(٧٣) هو سلطان بن عبدالله بن سويلم كان أخوه عبدالرحمن أميرًا للقطيف منذ توحيدها على يد الملك عبدالعزيز سنة ١٣٣١هـ حتى سنة ١٣٤٨هـ، ويبدو أن سلطان كان يعيش في القطيف إلى جانب أخيه عبدالرحمن، ويتولى بعض المهمات، منها ما أشار إليه فيلبي، وكان ينوب عن الأمير عبدالرحمن في حال سفره. انظر: خالد الفرج، مصدر سابق، ص١٢.

(74) H. St. J. B. Philby, The Heart of Arabia, op. cit, p. 11.

إلى ذلك أورد معلومات مهمة لم ترد عن غيره، فذكر أن محمد أفندي (مدير المالية في الأحساء) يتقاضى (٢٠٠) دولار شهريًا، وقدر عدد سكان الأحساء بحوالي خمسة وسبعين ألفًا، وعدد سكان القطيف والجبيل بحوالي خمسة وعشرين ألفًا[٧٥]، ومثلُ هذه الملحوظات المتنوّعة والدقيقة تميّز بها فيلبي عن غيره من الرحالة الآخرين.

ودّع فيلبي الأحساء متجهًا إلى الرياض لإكمال مهمته ومقابلة الملك عبدالعزيز، وشعر خلال رحلته القصيرة من العقير إلى الهفوف بأن اللباس الغربي غير مناسب لا من الناحية العملية ولا من الناحية الاجتماعية؛ لهذا كان سعيدًا عندما علم أن لدى ابن جلوي تعليمات لتزويدهم بملابس عربية[٧٦]، وقد زودنا فيلبي كذلك بمعلومات مهمة عن الطريق والقافلة التي قال: إنها تضم جمالاً وحميرًا، بالإضافة إلى من انضم إلى القافلة، وكان من بينهم درويش (حاج) من السّند يمشي على قدميه في طريقه إلى مكة المكرمة[٧٧].

هذه المعلومات التاريخية التي أوردها فيلبي عن الأحساء يمكن أن تتضاعف لو أمكن نشر كل أعماله وأوراقه، وإتاحتها لطلاب العلم والمعرفة. ذكر الشيخ حمد الجاسر أنه رأى عند زيارته لفيلبي في منزله في الرياض غرفةً مملوءة في كل جوانبها بالإضبارات المرتبة بأرقام التسلسل، وهي تحوي تقارير ومكاتبات ودراسات...إلخ، كما أردف الشيخ حمد بأنه رآها بعد ذلك مرارًا مركومةً بعضها فوق بعض في الدهليز الموصل للشعبة السياسية في قصر الناصرية[٧٨]، ويبدو أن مكتبة فيلبي سالفة الذكر كانت

(75) Ibid, pp. 31-33.

(76) H. St. J. B. Philby, Arabian Days, op. cit, p. 148.

(77) H. St. J. B. Philby, The Heart of Arabia, op. cit, p. 44.

(٧٨) حمد الجاسر، رحالة غربيون في بلادنا، مصدر سابق، ص ص ٢٨٠ - ٢٨٤.

محفوظة في مكتبة أرامكو، ثم آلت إلى كلية سانت أنتوني بجامعة أكسفورد (St.Antony's College, Oxford)، وبعضٌ من أوراقه لا تزال محفوظة لدى عائلته(٧٩). ولقد قامت دارة الملك عبدالعزيز بإبرام اتفاق مع جامعة أكسفورد تم بموجبه تزويد الدارة بنسخة كاملة من أوراق فيلبي.

٤- آر. إي. تشيزمان (Major R. E. Cheesman):

ولد الرائد روبرت إرنست تشيزمان سنة ١٨٧٨م/١٢٩٥هـ، في وست ولّ (westwell) بمقاطعة كنت (Kent) في بريطانيا. هذا الرجل العسكري مثلُه مثل مواطنه فيلبي، زجّت به أحداث الحرب العالمية الأولى إلى العراق، وبعد نهاية الحرب أصبح سكرتيرًا للسير برسي كوكس أول مندوب سام في العراق، وكان يجمع بينهما حبهما الشديد للطبيعة، وذكر السير برسي كوكس في تقديمه لكتاب تشيزمان الموسوم (في شبه الجزيرة العربية المجهولة) أنه بعد تعرّفه عليه تكوّنت بينهما "رابطة قوية من التعاطف والاهتمام المشترك في حب الطبيعة الشديد، التي كانت تلازم كلا منهما، والتي لم تستطع حتى اهتمامات اللحظة الأكثر خطورة (أي الحرب) إخفاءها نهائيًا عن حياتنا اليومية"(٨٠). استمرت هذه العلاقة والصداقة بين الرجلين لمدة سبع سنوات أي حتى نهاية فترة عمل برسي كوكس في العراق، واستفاد تشيزمان من صداقته للسير برسي كوكس الذي تربطه علاقة جيّدة بالسلطان (الملك) عبدالعزيز، وقد استطاع كوكس عند اجتماعه بسلطان نجد في العقير سنة ١٣٤١هـ/١٩٢٢م أن يحصل لتشيزمان على إذن بزيارة الأحساء ويبرين.

(79) Elizabith Monroe, op. cit, p. 6. And George Rentz, Op. Cit, p.25.

(٨٠) آر إي. تشيزمان، في شبه الجزيرة العربية المجهولة، ترجمة د. عبدالله محمد المطوع، ود. محمد بن عبدالله الفريح، الرياض: مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، ١٤١٩هـ، ص١٥.

وبعد حصوله على دعوة من سلطان نجد عاد إلى لندن، وبدأ يستعدّ لرحلته القادمة، وألحق خادمه العربي مهدي بن صالح أثناء وجوده في لندن بمتحف جنوب كنسجتون لدراسة مادة صقل مهارات في سلخ الطيور والحيوانات، وأكمل جمع لوازمه للرحلة، وعبّأها في صناديق، ثم استقلّ سفينة إلى البصرة، ومنها إلى البحرين، ومن هناك استقلّ مركبة بحرية عربية تسمى البغلة، أوصلته مع أمتعته إلى ميناء العقير يوم ١٧ نوفمبر ١٩٢٣م(٨١).

قضى تشيزمان أشهرًا عدّة (من نوفمبر ١٩٢٣م - مارس ١٩٢٤م) في منطقة الأحساء ويبرين، وقد تمكّن خلال هذه الفترة من جمع الكثير من عيّنات الطيور والحيوانات والحشرات، وإرسالها إلى متحف التاريخ الطبيعي في بريطانيا، كما قام ببعض الإنجازات الجغرافية مثل رسم خرائط وتحديد مواقع، وبحث عن آثار الجرهاء في العقير، ودوّن العديد من الملحوظات الاجتماعية والسياسية، وقد جمع تشيزمان كل ملحوظاته ومشاهداته في هذه الرحلة، ودونها في كتاب أسماه (In Unknown Arabia) (في شبه الجزيرة العربية المجهولة)، ويعدّ هذا الكتاب بحقٍّ سجّلاً صادقًا للحياة الاجتماعية والبيئية للأحساء في تلك الفترة المهمة من تاريخ المنطقة، وينقسم هذا الكتاب أربعة أقسام:

القسم الأول: يتكوّن من الاستعدادات للرحلة، ووصف للبحرين، ورحلة قام بها إلى سلوى سنة ١٩٢١م.

القسم الثاني: يتكوّن من وصف للعقير، والطريق منها إلى الهفوف، ثم يورد ثلاثة فصول طويلة عن الحياة في الهفوف، تخلّلها العديد من الملحوظات والمشاهدات والمواقف، وتُوّجت أخيرًا بلقائه السلطان عبدالعزيز في الهفوف.

(٨١) المصدر السابق، ص٦١.

القسم الثالث: يتكون من وصفه لاستعداداته للرحلة إلى يبرين والطريق، ثم العودة إلى الهفوف ومغادرتها عن طريق ميناء العقير.

القسم الرابع: يحتوي على معلومات فنية وعلمية بَحْتة، بشأن لون الصحراء ولون الحماية الذي تتّخذه الحيوانات والطيور أثناء عيشها في الصحراء، وكذلك معلومات بشأن مشكلات الماء والشرب، وأخيرًا يشتمل هذا القسم على ثمانية ملحقات علمية بخصوص الثّدييات والطيور والزواحف والبرمائيات والأسماك والحشرات، وملحوظات نباتية وجيولوجية، وسجلٍّ للأرصاد الجوية، وقد أراد المؤلّف من كتابه هذا أن يكون دليلاً لمن يأتي بعده من الرحالة؛ ولذا ضمّنه ملحقًا حول مستلزمات الرحلة.

تختلف هذه الرحلة عما سواها من الرحلات من نواح عدّة؛ إذ جاء هذا الرحالة بدعوة من السلطان عبدالعزيز فهو يعد ضيفًا للدولة منذ وصوله إلى البحرين، ولهذا السبب ذُلّلت أمامه الكثير من الصعاب، وقد قدم هذا الرجل إلى الأحساء بصفته عالم طبيعيات، ليجمع عينات من طيور وحيوانات المنطقة. من ناحية أخرى فإن مما يميز هذا الرحالة هو أنه قصر اهتمامه على الأحساء التي مكث بها أشهرًا عدّة، وسجّل لنا مرئياته عن المجتمع الأحسائي، وكأنه أراد أن يحفظ لنا صورة ذلك المجتمع في تلك الفترة الانتقالية من تاريخه، وأخيرًا كان هذا الرحالة قد اطّلع على كتب مَنْ سبقه من الرحالة الذين كتبوا عن الأحساء وخاصة بلغريف، وفيلبي(٨٢). كما استطاع هذا الرحالة أن يضيف الشيء الكثير إلى ميدان البحوث العلمية البحتة، سواء كان ذلك في حقل الجغرافيا أو حقل الحياة الفطرية، ووشّح كتابه بالعديد من الصور التاريخية.

مع أهمية هذا العمل، إلا أن الباحث يفاجأ عند قراءة أدبيات الرحلة إلى الجزيرة العربية بأن هذا الرجل كان مغمورًا، ولا يذكر إلا

---

(٨٢) انظر: المصدر نفسه، ص ص ٩٧، ٩-١٠٩-١١٠، ١١٢، ١٢٢، ١٢٣.

عرضًا. هل نجد تفسيرًا لذلك في بروز فيلبي وتسيده لميدان البحث في الجزيرة العربية؟ فمثلاً لو نظرنا إلى روبن بدول، لا نجد له ذكرًا عنده، وهو الذي خصّص كتابه (Travellers in Arabia) الذي صدر سنة ١٩٧٦م لتراجم الرحالة الذين قدموا إلى الجزيرة العربية، لكن كيرنان (Kiernan) الذي صدر كتابه سنة ١٩٣٧م أثناء حديثه عن بيرترام توماس، يعترف بريادة تشيزمان في اكتشافه للجزء الشمالي من الربع الخالي[٨٣]. إن اطّلاع تشيزمان على كتب مَنْ سبقه من الرحّالة إلى الأحساء، وحياديته تجاه ما أثير من شكوك حول رحلة بلغريف أعطى آراءه وزنًا لدى المهتمين بهذا الموضوع. فنجد كلاً من جاكلين بيرين وكيرنان يعتمدان على أقوال تشيزمان ومشاهداته بشأن الأحساء، وذلك أثناء مناقشتهما لقضية بلغريف[٨٤]، وقد تميّزت أحكام تشيزمان على ما أثير حول بلغريف ورحلته بأنها كانت مبنية على معاينة فعلية أثناء وجوده في الأحساء، ومحاولة لفهم القضية بطريقة هادئة. وناقش قضية ربط الجمال أثناء سيرها في القافلة، وحسمها لصالح بلغريف، كما ناقش ما ذكره فيلبي حول زراعة الشعير في الأحساء، وقال: إن الحقّ بخلاف ذلك، متفقًا مع ما ذكره بلغريف. أما ما ذكره بلغريف من أنه رأى قصب السّكر يباع في السوق فقال: إنه ربما يكون قد اشتبه لديه مع نبتة الطرثوث (المحلية) التي تباع في أسواق الأحساء[٨٥].

كان قدوم تشيزمان إلى الأحساء في وقت شهدت المنطقة العديد من التطورات السياسية والاجتماعية، وقد كان مؤتمر الكويت منعقدًا لمناقشة الخلافات الحدودية، وكانت الرسل تغدو وتروح إلى الكويت مرورًا بالأحساء، حتى إن السلطان عبدالعزيز نفسه قدم إلى الأحساء

(83)R.H. Kiernan, op. cit, pp. 312-313.

(٨٤) جاكلين بيرين، مصدر سابق، ص١٣٦، و Ibid, pp. 245, 258.

(٨٥) انظر الحديث عن هذا الموضوع في: الفصل الثامن من تشيزمان، مصدر سابق، ص ص ١٠٩-١١٢.



ليكون قرب الكويت لمتابعة المفاوضات[٨٦]، وبعد أن فشل هذا المؤتمر في حسم الخلافات الحدودية قرّر السلطان عبدالعزيز ضمَّ الحجاز وتوحيدها مع بقية مناطق البلاد، وقد أشار تشيزمان إلى مؤتمر الكويت إشارة عابرة، واكتفى بذلك، لكنّ حدثًا مهمًا مثل هذا لن يغيب عن ملحوظات فيلبي التي وإنْ كانت مختصرة إلا أنها دقيقة.

من ناحية أخرى، كانت حركة الإخوان في أوج قوتها، وقد أمدّنا ببعض المعلومات عنها؛ إذ قال: "إن السلطان أسّس هذه الحركة، وحوّل هذا الجزء المضطرب من مجتمعه إلى قوة عسكرية تتحكم بها الدولة"[٨٧]، وعلى الرّغم من أنّ اهتمامه كان منصبًا على جمع عينات من الطيور والحيوانات إلا أنه أورد الكثير من الملحوظات السياسية والاجتماعية المهمة مثل سابقه فيلبي؛ فرصد الانطباع العام لدى سكان المنطقة حول تمكّن الإدارة الجديدة من إحلال الأمن بشكل لم يسبق له مثيل، على خلاف ما كان عليه الحال قبل عشر سنوات في العهد العثماني. وقد قابل أمير الأحساء عبدالله بن جلوي مرات عديدة، وأُعجب كثيرًا بإدارته وحزمه وعدله، وقال عنه: "كان جنديًا أولاً وآخرًا، وسيبقى كذلك دائمًا؛ ولذا فالانضباط ملازم لجو مجلسه، وفي حضرته ترى موظفيه دائمًا كأنهم في عرض عسكري"[٨٨]. وفي أثناء فترة انتظاره الإذن بالسفر إلى واحة يبرين، قدم السلطان عبدالعزيز إلى الأحساء، فتشرّف بلقائه مرات عدة، وأبدى إعجابه الكبير به وبأعماله، وزوّدنا بمعلومات مهمة عنه، وعن رجال حاشيته، وخصّص لها فصلاً من كتابه[٨٩].

---

(٨٦) حول هذا المؤتمر انظر: خير الدين الزركلي، مصدر سابق، ١/٣٢٥-٣٢٦.
(٨٧) تشيزمان، مصدر سابق، ص ص ٥٦-٥٨.
(٨٨) المصدر السابق، ص ص ١٠١، ١٠٣، ١١٤، ١٤٤، ١٤٦-١٤٧، ١٨١، ١٨٤، ٢٠١، ٢٠٩، ٢٢٤-٢٢٥، ٢٥٨، ٢٦٦.
(٨٩) المصدر السابق، ص ص٢٢٣-٢٧٣.

أسهم المؤلف كذلك في التعريف بمجتمع الأحساء في تلك الفترة التي كانت على موعد مع تغيرات قادمة، خاصةً بعد اكتشاف البترول؛ فها هو ذا يصف ردة فعل الشارع الأحسائي تجاه مشاهدة السيارة بقوله: "كان هناك شيء مثير جدًا، كانت الناس تصرخ، وتجري، وتفرّق الأولاد سائقي الحمير المبتهجين المسكين بحميرهم شذر مذر. وكان كل شخص يمدّ رقبته من النافذة أو من خارج الباب، بعد انتظار طويل جاء الصوت المعروف لمنبه سيارة فورد، ويلحقها حشدٌ مبتهجٌ من الرّجال والأولاد، حتى النساءُ والفتيات شاركن في ذلك"[٩٠]. انفرد هذا الرحالة بهذا الوصف الطريف لهذا التغيّر في وسيلة النقل والمواصلات الذي لم يتمكن هو من التمتع بها أثناء رحلته، ولكنه أصبح أمرًا طبيعيًا لمن أتى بعده من الرحالة.

اهتم تشيزمان بوصف الحياة الاجتماعية في الهفوف، وخصّص لها جزءًا كبيرًا من كتابه، وأعطى وصفًا للأسواق والعاملين فيها ومرتاديها، وخاصة سوق الخميس، كما أعطى وصفًا للفلاحين ومحاصيلهم، وكان ذلك في أثناء جولاته في المزارع بحثًا عن الطيور. من ناحية أخرى تمكّن من الاتصال بالفئات العليا من المجتمع الأحسائي، وأعطى وصفا جيدًا لحياتهم الاقتصادية والاجتماعية؛ فبالإضافة إلى لقاءاته وزياراته المتكررة لمحمد أفندي[٩١]، ومشاركته للمتنزّهين حول عيون الأحساء، قام بأكثر من زيارة لمكتب القصيبي في سوق الخميس، ثم زاره في مزرعته، وكان قد عاد مؤخرًا من لندن، ورصد لنا ردّة فعله تجاه ما يمكن أن نسميه أول احتكاك مع الغرب، وكان عبدالله القصيبي معجبًا بما رآه في لندن، وخاصة الشرطة وكيفية انضباطها وتنظيمها لحركة السيارات التي لم تكن

(٩٠) المصدر السابق، ص ص١٦٨-١٦٩.
(٩١) المصدر السابق، ١٠١، ١٠٣، ١٠٤، ١٣٢، ١٤٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٧١، ١٨٣، ١٨٤، ٢٠١، ٢١٤، ٢٢٨، ٢٥٨، ٣٩٧.



معروفة في الجزيرة العربية في ذلك الوقت. وفي محاولة منه لإقناع سامعيه "قفز إلى وسط الغرفة، وأعطى عرضًا رافعًا يده، ومحدقًا بتركيز وقوّة في الجدار المقابل كما لو أنه يتصور صفًا من الحافلات تندفع نحوه، ويؤشر لها بهيبة حتّى مرّت كلُّها"، ثم أردف قائلاً: "ستجدون صعوبة في تصديقي، لكن رجل البوليس لا يصرخ أبدًا، بل لا يتكلم!"[٩٢]. وقد كان شاهد عيان دون الكثير من الملحوظات عن العادات والتقاليد التي كانت سائدة في ذلك الوقت، وقد أخذت في الاختفاء، أو اختفى معظمها من مجتمع الأحساء المعاصر. انظر مثلاً وصفه الجميل لسوق الخميس، ولحركة الناس، والبضائع المعروضة فيه، وقد كان يُطلّ على السوق المزدحم من الدَّور العلوي لمكتب القصيبي الذي يقع وسط السوق؛ ففيه سيلٌ منهمرٌ من الجمال والحمير تتوالى على السوق، ورجالٌ يبيعون ويشترون، ونساءٌ يتبضعن، ويغزلن أثناء مشيهن في السوق... ينادي الدّلال على بضائع لبيعها في السوق المزدحم، وصوت آخر ينادي في السوق نفسه، ولكنه ليس صوت دلاّل يعرض سلعة للبيع، وكان ذلك منادي البلدة، يبحث عن ولد وبنت صغيرين كانا قد فقدا، وعن نقود مفقودة، وأخرج صاحبُها الخمس مكافأةً لمن يجدها، وكذلك عن جرس حمار ضائع[٩٣]. وقد ذهبتْ هذه العادات وهذه التقاليد، وأصبحت شيئًا من الماضي. ولم يكن لهذا الرّحالة رصدُ مثل هذه الأشياء لو لم تطل فترةُ إقامته في الأحساء، ومن ثم تعرّفه على الحياة، واختلاطه بفئات المجتمع المختلفة.

في ميدان الحياة الفطرية والتاريخ الطبيعي يعدّ كتاب تشيزمان مصدرًا لا غنى عنه للمهتمين بهذا الموضوع ؛ إذ قام المؤلّف في كتابه هذا برصد لطيور المنطقة، وللطيور المهاجرة، وقد أخذ عينات منها،

(٩٢) المصدر السابق، ص ص ١٨٨، ١٩٢، ١٩٨-١٩٩، ٢١٢-٢١٣.
(٩٣) المصدر السابق، ص ص١٢٥-١٢٩.

وصنّفها تصنيفًا علميًا، وقد كانت بعض الطيور التي حصل عليها غير مصنّفة علميًا ؛ ولذا فقد أعطى لهذه الأنواع تسميات من عنده، وبعضها سماها على شرف مضيفه السلطان عبدالعزيز(٩٤)، كما قام بدراسة الثدييات المنتشرة في الأحساء، وقارنها بمثيلاتها في المناطق المجاورة، وكان من بين هذه الثدييات حيوان المها العربي (الوضيحي) الذي توجد عيّنةٌ منه في المتحف البريطاني، أحضرت سنة ١٨٥٧م، كما أضاف بأن السلطان عبدالعزيز أهدى عينة جيدة من المها إلى ملك بريطانيا أثناء سنوات الحرب الأولى، وكانت لا تزال موجودة في حدائق الحيوان بلندن (أي في سنة ١٩٢٦م)، وقد ذكر تشيزمان موقفًا طريفًا أظهر فيه جانبًا غير معروف من شخصية الملك عبدالعزيز، وهو معرفته واهتمامه بالحياة الفطرية. وبعد وصول الملك إلى الأحساء، استعرض معه مجموعة عيّنات من الطيور والحيوانات التي جمعها أثناء تجواله في المنطقة، وقال: "أظهر السّلطان معرفة أكثر بالأنواع المختلفة من أي مثقف عربيٍّ قابلته حتى الآن، كما أبدى اهتمامًا بالبومة النسارية التي ذكر أن اسمها الصحيح بومة فيوم"(٩٥)، وجمع في أثناء تجواله في منطقة الأحساء والخليج العربي الكثير من عيّنات الطيور والحيوانات، وأرسل جلودها إلى المتحف البريطاني (متحف التاريخ الطبيعي)؛ لتصنيفها، وحفظها، ودراستها، وقد كان سبّاقًا في ملحوظاته حول البيئة، وخاصةً سرعة تناقص المها العربية، وعزا ذلك إلى تزايد الأسلحة في أيدي رجال القبائل(٩٦). ولا شك أن انتشار البنادق ومن ثم السيارة التي لم تكن قد انتشرت عند مجيء تشيزمان كانا عاملين حاسمين في سرعة تناقص هذا الحيوان، وغيره من الحيوانات والطيور البرية.

---

(٩٤) المصدر السابق، ص٤٩٥.
(٩٥) المصدر السابق، ص ص٢٣٨-٢٣٩.
(٩٦) المصدر السابق، ص ص٤٨٨-٤٨٩.



٥- جيرالد دو جوري (Gerald De Gaury):

اكتسب جيرالد دو جوري خبرة واسعة، وأتقن اللغة العربية من خلال عمله في المنطقة العربية بعد الحرب العالمية الأولى، وكان ضابطًا في الجيش البريطاني، ودبلوماسيًا عمل في العراق والكويت والمملكة العربية السعودية[٩٧]، قدم الجزيرة العربية بعد أن توحدت المملكة العربية السعودية، وأصبحت السيارة وسيلة من وسائل المواصلات، قام هذا الرحالة برحلات عدة إلى المملكة العربية السعودية، من أهمها رحلة على السيارة سنة ١٣٥٣هـ/١٩٣٤م من جدة مرورًا بالرياض ؛ إذ قابل الملك عبدالعزيز، ومنها إلى الكويت[٩٨]، وقد كانت هذه الرحلات في الخمسينيات من القرن الرابع عشر الهجري/ الثلاثينيات من القرن العشرين الميلادي، وكأنه قدم ليسبر مدى التغيرات التي حصلت في الجزيرة العربية، وكان قدومُه كذلك أشبه بمقياس لمدى تكيّف الناس مع وسائل المواصلات الحديثة التي بدأت تدخل في حياة الناس، ويشعرون بفائدتها. هاهو ذا يقطع المسافات على السيارة التي وإن أصبحت مألوفة نسبيًا، إلا أنها ما زالت تثير فضولاً لدى الناس. من ناحية أخرى لا يمكن مقارنة هذا الفضول بموقف أهالي الأحساء من السيارة الذي وصفه تشيزمان بطريقة درامية، وما زال الجملُ سيّد الصحراء لا شك في ذلك، ولكن السيارة تنافسه بشكل قويّ، والطائرات تعبر أجواء الجزيرة العربية، وإن لم تستعمل فيها بعد.

قدم دو جوري مرةً أخرى سنة ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م إلى الجزيرة العربية، ولكنّ في هذه المرة على الطائرة، جاء بصفته مبعوثًا في مهمة رسمية بصحبة السيد أندرو رايان (Sir Andrew Ryan) أول

(97) Elizabith Monroe, op. cit, pp. 221, 226.

(٩٨) سمير عطا الله، قابلة الحبر، بيروت: دار الساقي، الطبعة الأولى ١٩٩٤م، ص ص٢٥١-٢٥٧.

وزير بريطاني يزور المملكة العربية السعودية، وقد ركب السيد رايان ودو جوري طائرة تابعة لسلاح الجو الملكي البريطاني من القاهرة؛ ولعدم وجود مطار في الرياض، كان عليها عبور أجواء المملكة العربية السعودية لتهبط في مطار البحرين(٩٩). كان هدفُ هذه الرحلة بلا شك مقابلة الملك عبدالعزيز في الرياض، ولكن كان عليهما المجيء عن طريق الأحساء. وقد أثمرت هذه الرحلة عن كتاب ألفه جيرالد دو جوري سماه (عنقاء الجزيرة العربية) (Arabia Phoenix)، ضمّن هذا الكتاب مرئياته ومشاهداته، واصفًا طريق رحلته من البحرين عبر الأحساء، إلى أن تُوّجت بمقابلة الملك في الرياض(١٠٠)، وبعد أن أكمل السيد رايان مهمته في الرياض، واصل طريقه إلى جدة، ومنها ركب السفينة إلى السويس.

ما يهمنا في هذا المقام هو ما ذكره هذا المبعوث - الرحالة من ملحوظات حول الأحساء وإن كانت أقلَّ مما أورده كلٌّ من فيلبي وتشيزمان، إلا أنها تظل مهمة؛ لأنها جاءت في فترة متأخرة بعد أن استقرت البلاد، وأخذتْ شكلها النهائي. ركب السيد رايان ودو جوري سفينة كان الملك قد أمر بها عن طريق ممثله في البحرين السيد عبدالعزيز القصيبي، وقد تبادلوا أطراف الحديث مع القصيبي حول تجارته، وأنواعها، وذكر دو جوري أن القصيبي يتولى توريد معظم البضائع التي يحتاجها ابن سعود لبلاده، وقبل أن يصلوا إلى العقير طلب منهم ارتداء اللباس العربي الذي وصفه بأنه لازم على كل الأجانب القادمين إلى الجزيرة العربية(١٠١)، وكما هو متوقّع، كان

(99) Gerald de Gaury, Arabia Phoenix, London: George G. Harrap and co. Ltd, 1947, p.3.

(١٠٠) للمزيد من المعلومات عمّا ذكره دو جوري عن الرياض انظر: سمير عطا الله، مصدر سابق، ص ص٢٥٩-٢٧٠، و Gerald de Gaury, Arabia phoenix, op. cit, pp. 59-93.

(101) Gerald de Gaury, Arabia Phoenix, op. cit, pp. 35-37.

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
العدد الأول المحرم ١٤٢٣هـ، السنة الثامنة والعشرون
الدارة

أمير العقير في استقبال هذا الوفد الرسمي، كما هو الحال مع فيلبي وتشيزمان، لكن تطور أجهزة الدولة أوجب حضور ممثل للخارجية وهو السيد توفيق حمزة، وذكر هذا الرحالة - المبعوث السياسي - أن عدد سكان العقير يبلغ حوالي خمسمئة نسمة، وهذا العدد وإن بدا عاليًا بعض الشيء إلا أنه يعد مؤشرًا جيدًا لتطور العقير وازدهارها بعد أيام فيلبي وتشيزمان(١٠٢). ولا بد هنا من ملاحظة أن هذا الميناء - وخاصةً بعد أن عم الأمن والاستقرار - أصبح يعجّ بالنشاط ما بين تجار ومسافرين، إلى عمال لتفريغ البضائع وتحميلها على السفن، ونقلها على الدواب من الهفوف وإليه، بالإضافة إلى ذلك كان هناك سكان العقير من موظفي الجمارك والإمارة وغيرهم، كما أنه لا بد من القول: إن هذا الميناء القديم " كان إلى سنة ١٣٦٥هـ/١٩٤٥م هو ميناء الأحساء ترد إليه السفن التجارية، ثم استغني عنه بميناء الدّمام"(١٠٣).

وقد تحدث دو جوري مع أمير العقير ولم يزد في وصفه غير أنه بدوي ذو لحية بيضاء. وحول أحوال البلدة، ونسبة الجمارك ذكر بأنها ٨٪، وأن دخل الجمارك في العام الماضي بلغ ستين ألف جنيه.

كانت العقير الميناء الرئيس على الساحل الشرقي للجزيرة العربية، وكانت تغصّ بمئات من الجمال في انتظار تحميلها بالبضائع، وكان أصحاب هذه الجمال من قبائل شرق الجزيرة العربية مثل آل مرة والمناصير، والعجمان، والعوازم، وبني هاجر، وبني خالد(١٠٤). لا شك أن مثل هذا التجمع بين أفراد يمتهنون المهنة نفسها في محيط واحد، وينتمون إلى قبائل مختلفة، وربما كانت في الماضي القريب على خلاف مع بعضها أمر يستحق الاهتمام، ومثل هذا لم يكن ممكنًا لولا سيطرةُ الدولة، وقوتها، وفرضها الأمن في أرجاء البلاد كافة.

(102) Ibid, p. 37.

(١٠٣) محمد بن عبدالله بن عبدالقادر الأحسائي، مصدر سابق، ص٢١.

(104) Gerald de Gaury, Arabia Phoenix, op. cit, pp. 38-39.

وبينما كان الوفد البريطاني جالسًا في مجلس الأمير يتناولون القهوة والشاي، كانت حوائجهم تنقل من السفينة، ولكن ليس إلى ظهور الجمال والحمير مثلما كان الحال بالنسبة لفيلبي، وتشيزمان، بل إلى سيارة خصصت لنقل أمتعتهم. بالإضافة إلى ذلك كان هناك سيارة أخرى ركبها الوفد متجهًا إلى الهفوف، وكانت تلك نقلة نوعية في وسائل المواصلات والتنقل في الجزيرة العربية، ولكن الإنسان تعامل مع هذه التغيرات ربما بطريقة فريدة، وقد أعجب دو جوري بمهارة السائق السعودي، وكيفية تعامله مع هذه الآلة الجديدة أثناء صراعه ومناوراته في الطرق الرملية ؛ إذ كان يشجّع سيارته بعبارات لم تخف ماضيه القريب؛ فهو يناديها بصيحات كانت أكثر ملاءمةً للجمل(١٠٥).

وصل الوفد إلى الهفوف بعد ساعات عدة من مغادرة العقير، لكن سيارة الأمتعة لم تصل إلا في مساء الغد، وقد أعطى دو جوري وصفًا لأحياء الهفوف التي ذكر أنها مبنية على الطريقة التقليدية النجدية، كما أعطى وصفًا لموقد القهوة ينمّ عن فهم للتقاليد العربية. من ناحية أخرى فإن ملحوظاته لا تصل إلى دقة ملحوظات فيلبي وأهميتها، ولا إلى كمية ملحوظات تشيزمان وتنوعها، التي أوردها في فصول عدة عن الحياة في الأحساء. وقد قابل الوفد البريطانيَّ أميرُ الأحساء الجديد، وهو سعود بن عبدالله بن جلوي، وكان والده الأمير عبدالله بن جلوي قد توفي قبل وصول الوفد بأقل من شهر(١٠٦)، وفي أثناء وجودهم في الأحساء رافقهم السيد توفيق حمزة إلى عين نجم التي كانت عامرةً بالسباحين والمتنزهين على خلاف ما كان عليه

(105) Fadia Saud Alsaleh, Travels to Arabia during the Reign of King Abdulaziz, Conference on the Kingdom of Saudi Arabia : 100 Years, p. 17.

(١٠٦) توفي الأمير عبدالله بن جلوي سنة ١٣٥٤هـ.

الحال عندما زارها تشيزمان، ووصفها بأنها منتنة، وحمامها خرب(١٠٧).

بعد أن اكتملت الاستعدادات غادر الوفد البريطانيُّ الأحساء في طريقه إلى الرياض، وكانت مشكلة تشيزمان أثناء رحلته إلى يبرين هي العثور على مرعى للإبل في الطريق، في حين أن مشكلة دو جوري كانت في التضاريس، وكيفية البحث عن طريق يناسب مرور السيارة، وعندما اقترب الوفد من آبار رماح شاهدوا سيارة تنطلق مسرعة نحوهم، وكان ذلك رسولاً يحمل رسالة ترحيب من الملك سلّمها لهم، ثم قفل مسرعًا إلى الرياض(١٠٨).

هذه الملحوظات لأحوال المجتمع والتغيرات التي طرأت عليه يندر وجودها في مصدر واحد، وخاصة في المصادر المحلية، ومن هنا تأتي أهمية تتبّع كتب الرحلات، والتركيز على منطقة بعينها مثل منطقة الأحساء، وبهذه الطريقة يمكننا تعزيز الرواية المحلية، ورصد التغيرات والتحولات التي طرأت على ذلك المجتمع.

---

(١٠٧) تشيزمان، مصدر سابق، ص ٢٠٦.

(108) Gerald de Gaury, Arabia Phoenix, op. cit, 45.

الخاتمة:

عمدت هذه الدراسة إلى التركيز على منطقة معينة، في فترة زمنية معينة، وشملت روايات خمسة رحّالة غربيين، تعاقبوا في قدومهم إلى تلك المنطقة، وكانت المنطقة هي الأحساء، والفترة الزمنية هي النصف الأول من القرن العشرين الميلادي/ الرابع عشر الهجري، وقد عرفت الأحساء في تلك الفترة تغيرات سياسية واقتصادية واجتماعية، حاولنا في هذا البحث رصدها من خلال روايات هؤلاء الرحالة الخمسة، وقد قدم كلٌّ واحد منهم في ظروف خاصة ومختلفة عن سابقه ولاحقه ؛ فكان قدوم شكسبير ورنكيير عندما كانت الأحساء تحت الحكم العثماني، وقدّر للأخير أن يكتب كتابًا عن رحلته، أسهم بعض الشيء في التعريف بأحوال تلك الفترة، على حين لم يتمكّن شكسبير من ذلك نظرًا لوفاته المفاجئة في معركة جراب. وفي سنوات الحرب العالمية الأولى جاء فيلبي، ذلك العالم الرحّالة، وكانت الأحساء قد تم توحيدها على يد الملك عبدالعزيز، فتمكّن من تدوين ملحوظاته ومشاهداته عن المنطقة في تلك الفترة المهمة من تاريخها، واتّسمتْ رواياتُه بالدقة والاستقصاء، وبهذا كان إسهامه نوعيًا ومتميزا على أقرانه من الرحالة الآخرين. وبعد أن وضعت الحرب أوزارها قدم تشيزمان عالم الطبيعة، وتجول في المنطقة أشهرًا عدة، تمكّن خلالها من جمع عينات لحيوانات وطيور كثيرة، وصنّفها تصنيفًا علميًا، وكان رائدًا في ذلك. كما أنه لم يكتف بذلك وهو الهدف الأساسي من رحلته، بل أسهم إسهامًا كبيرًا في تدوين تاريخ المنطقة السياسي والاجتماعي والاقتصادي. وقبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية، وبعد أن اكتملت مسيرةُ التوحيد وتوحدت البلاد رسميًا جاء دو جوري مبعوثًا من بلاده لمرافقة أول وزير بريطاني يزور المملكة العربية السعودية. وقد اتسمت ملحوظاته عن المنطقة بشحّها، ولكنها مهمة؛ لأنها جاءت في فترة متأخرة،

وعكستْ لنا بعضًا من سمات العصر، وتغيراته، وخاصةً في وسائل المواصلات. كان قد استقل الطائرة من القاهرة إلى البحرين، ثم بالسفينة إلى العقير، ومنه بالسيارة إلى جدة، مرورًا بالأحساء والرياض، وكان ممثلُ وزارة الخارجية على رأس مستقبلي الوفد في العقير، مما يعكس تطور أجهزة الدولة الحديثة.

مثل هذه الروايات لا نجد مثيلاً لها في المصادر المحلية، ومن هنا تأتي أهمية تتبعنا لأعمال الرحّالة حول منطقة بعينها لنرى الفوارق، ونرصد التغيرات والتحوّلات التي طرأت على المجتمع في فترة معينة؛ مما يساعدنا على فهم تاريخه.